جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

إكرام الوالدين في القرآن الكريم
بلاغة التعبير وأثر السياق"

إعداد

د/ نشوى أحمد عبد الرحمن أحمد
مدرس البلاغة والنقد كلية البنات الإسلامية بأسيوط
جامعة الأزهر جمهورية مصر العربية

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الرابع .. نوفمبر)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

إكرام الوالدين في القرآن الكريم بلاغة التعبير وأثر السياق

نشوى أحمد عبد الرحمن أحمد

قسم البلاغة والنقد، كلية البنات الإسلامية بأسيوط، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: NashwaAhmed1435.el@azhar.edu

الملخص:

يهدف البحث إلى إبراز أثر السياق في علو مرتبة بعض المواضع على بعض فيما اتفقت في موضوع ما، وتطبيق ذلك على موضوع الدراسة" إكرام الوالدين في القرآن الكريم بلاغة التعبير وأثر السياق".

أمرنا الله تعالى بالإحسان بالوالدين، ووردت آيات كثيرة في ذلك، اختلفت في سياقها، والأسلوب المستخدم في الأمر بوجوب الإحسان إليهما، ووفق ذلك التغاير، كانت بعض السياقات أشد من غيرها، وبعض المواضع أعلى مرتبة من بعض في التعبير عن وجوب الإحسان إلى الوالدين.

ومن خلال هذه الدراسة– بإذن الله– سنتعرف على ذلك بالتفصيل.

إذ يبدأ البحث ببيان معنى السياق لغة واصطلاحًا، والتعرف على معنى السياق القرآني، ومعرفة عناصره، وبيان أهمية السياق في فهم المعاني، واستخراج دقائقها. ويقوم البحث بتقسيم الآيات الكريمة الواردة في إكرام الوالدين إلى سياقات تتفق في الغرض، ثم المقارنة بين الآيات الواردة تحت سياق

واحد؛ لاستخراج أعلاها مرتبة في إكرام الوالدين، وبيان دور السياق في تحديد أعلاها مرتبة، وأثر الأساليب البلاغية في ذلك.

وقد توصلت الدراسة إلى: دور السياق المهم في تحديد المعنى، وإبراز براعته، وبلاغته. الآيات القرآنية الكريمة الواردة في إكرام الوالدين داخل السياق الواحد تختلف في درجة إكرام الوالدين تبعا للأساليب والألفاظ المستخدمة في كل موضع.

وفي ضوء تلك النتائج، أوصي بدراسة متشابهات القرآن الكريم، وتوظيف السياق في الكشف عن الفروق التي يتميز بها كل موضع عن غيره.

الكلمات المفتاحية: إكرام، الوالدين، القرآن الكريم، السياق.

Honoring Parents in the Holy Quran
Eloquence of Expression and the Effect of Context

Nashwa Ahmed Abdel Rahman Ahmed
Department of Rhetoric and Criticism, Islamic Girls College in Assiut,
Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email :NashwaAhmed1435.el@azhar.edu

Abstract:

The research aims to highlight the effect of context in the high rank of some places over others in what they agreed on in a topic, and to apply that to the subject of the study "Honoring parents in the Holy Quran, eloquence of expression and the effect of context."

God Almighty commanded us to be kind to parents, and many verses were mentioned in that, differing in their context, and the style used in the command to be kind to them, and according to that difference, some contexts were more severe than others, and some places were higher in rank than others in expressing the obligation to be kind to parents.

Through this study - God willing - we will learn about that in detail.

The research begins by explaining the meaning of context linguistically and technically, and identifying the meaning of the Quranic context, knowing its elements, and explaining the importance of context in understanding meanings, and extracting its details. The research divides the holy verses mentioned in honoring parents into contexts that agree on the purpose, then compares the verses mentioned under one context; to extract the highest rank in honoring parents and explain the role of context in determining the highest rank, and the effect of rhetorical methods in that.

The study concluded that: The important role of context in determining the meaning, highlighting its brilliance, and eloquence.

The verses of the Holy Quran mentioned in honoring parents within the same context differ in the degree of honoring parents according to the styles and words used in each place

In light of these results, I recommend studying the similarities of the Holy Quran, and employing the context to reveal the differences that distinguish each place from others.

Keywords: Honoring, Parents, Holy Quran, Context.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات، وأزكى صلوات الله وتسليماته على المبعوث رحمةً للعالمين، نبي الرحمة وإمام الهدى، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن إكرام الوالدين، والتفاني في خدمتهما، هو من أعظم القيم التي يحث عليها الإسلام، ويؤكد عليها القرآن الكريم، فهو واجب على كل مسلم ومسلمة، وذلك لما يمثله الوالدان من مكانة عظيمة في حياة الإنسان، وللدور المهم الذي يلعبانه في تنشئته، ورعايته، يتضح ذلك من خلال آيات القرآن الكريم التي تأمر بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادة الله وحده قال تعالى: : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحسانا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فبتدبر هذه الآية الكريمة ندرك أن احترام الوالدين وإكرامهما يجب أن يكون مستمرًا، ومتواصلًا حتى وإن كبرا في السن، أو أصبحا بحاجة إلى الرعاية فيجب التعامل معهما باللطف، والإحسان، والتودد إليهما بكلمات الود والإكرام، وأن نكون مطيعين لهما في أمور الحياة في غير معصية الله – تعالى-.

ومن خلال الآيات الواردة في إكرام الوالدين نجدها وإن اتفقت جميعًا في وجوب إكرام الوالدين، إلا أنها اختلفت في أعلاها رتبة في التعبير عن إكرام الوالدين وفقا للسياق الواردة فيه.

ستحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على دور السياق في فهم الآيات القرآنية الواردة في إكرام الوالدين، وبيان كيف كان لاستخدام الأساليب البلاغية المختلفة دور في تحديد أعلاها مرتبة.

هذا وقد اعتمدتُ في هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك بجمع ما جاء في القرآن الكريم من آيات تتحدث عن إكرام الوالدين، وتفسيرها، وبيان الغامض من معاني كلماتها.

وقد وظفت المنهج السياقي في تقسيم الآيات القرآنية الواردة في إكرام الوالدين إلى سياقات خاصة، تندرج تحتها الآيات المشتركة في سياق خاص.

وقد اشتمل هذا البحث على مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وفصلٍ واحد، مشفوعًا بخاتمة، يليها فهرس المصادر، والمراجع، ثم محتويات البحث.

أما المقدمة: فقد أبنتُ عن أهمية الموضوع، ومنهج البحث، وخطته.

وأما التمهيد: فقد تحدثت فيه عن تعريف السياق ودوره في فهم الآيات القرآنية.

وأما الفصل فتناولت فيه:

– تقسيم الآيات القرآنية الواردة في إكرام الوالدين إلى سياقات.

–**السياق الأول:** أخذ العهد وتعديد التشريع.

–**السياق الثاني:** الوصية والعناية.

–**السياق الثالث:** سياق التكريم والتلطف.

–**السياق الرابع:** إكرام الوالدين بتفضيلهما عن غيرهما.

وأما الخاتمة: ففيها أبرز النتائج، والتوصيات.

التمهيد

مدخل:

للسياق دور مهم في تحديد المعنى، وإبراز براعته وبلاغته، ولمعرفة معنى السياق قبل التعرف على دوره في فهم المعنى، والكشف عن دقائقه، لابد من تعريفه لغةً واصطلاحًا.

السياق لغة:(يقال له السياق وأصله سِواق فقلبت الواو لكسرة السين وهما مصدران من ساق يسوق [١]).

(وتَسَاوَقَتِ الإبلُ تَسَاوُقاً: إذا تتابعتْ[٢])، (ويقال: وَلَدَتْ فلانةُ ثلاثةَ بنينَ على ساقٍ واحد، أي بعضُهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية[٣]).

مما ورد في تعريف السياق لغة يتضح أن معنى السياق يدور حول التتابع والتوالي.

وأما اصطلاحًا:

فقد أدرك البلاغيون أهمية السياق في تحديد المعنى، فلكل مقام مقال يصلح له دون غيره، فاللفظة الواحدة يختلف معناها باختلاف السياق الواردة فيه، وقد أشار إلى ذلك الإمام عبد القاهر (الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لِتُعْرفَ معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمَّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائدُ. وهذا علِمٌ شريفٌ، وأَصْلٌ عظيم[٤]).

---

١) لسان العرب ٢٤٧/١١.

٢) تهذيب اللغة ١٨٥/٩.

٣) الصحاح ١٤٩٩/٤.

٤) دلائل الإعجاز ص ٥٣٩.

السياق القرآني:

السياق القرآني هو السبيل لفهم المعنى القرآني، واستخراج دقائقه، فقد (قال أبو عبيد عن مسلم بن يسار: إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله، وما بعده)[١].

وللسياق القرآني عناصر لابد من معرفتها، كي نستطيع توظيفه في فهم الآيات القرآنية الكريمة، وهي:

- المكان: مكان الآيات داخل السورة، ومعرفة مدى ارتباطها بالآيات السابقة لها واللاحقة.
- الزمان: وقت نزول الآيات، والتي تساعد في فهم الأهداف والمقاصد.
- المعنى العام: المواضيع الرئيسية التي تتناولها السورة أو الآيات، وكيفية تداخلها مع بعضها البعض.
- البلاغة: الأساليب اللغوية والبلاغية المستخدمة في الآيات، مثل التأكيدات، والاستعارات، وكيف تعزز الفهم.

وبمعرفة تلك العناصر نستطيع فهم السياق القرآني، فيساعد في استخراج المعاني العميقة للآيات، واستخراج الفروق الدقيقة بين المواضع المتشابهة في القرآن الكريم.

١) تفسير ابن كثير ت / سلامة ١٣/١.

الفصل

تقسيم الآيات القرآنية الواردة في إكرام الوالدين إلى سياقات

إذا تدبرنا الآيات القرآنية الكريمة الواردة في إكرام الوالدين نجدها وردت في سياقات عدة في صورة إبداعية متكاملة، حيث ورد ترتيب السياقات وفق ترتيب المصحف الشريف:

- **السياق الأول: أخذ العهد وتعديد التشريع.**

فبدأ سبحانه تعالى بوجوب الإحسان إليهما، وذلك في أربعة مواضع في أربع سور وهي

أولًا: سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]

ثانيًا: سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]

ثالثا: سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]

رابعًا: سورة الإسراء في قوله تعالى:﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]

واشتركت تلك المواضع الأربع في وجوب الإحسان إلى الوالدين قال تعالى:(وبالوالدين إحسانًا).

- **<u>السياق الثاني: الوصية والعناية.</u>**

ثم جاء التعبير عن وجوب إكرام الوالدين بالتوصية بهما، وذلك في ثلاثة مواضع:

أولهما: قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٨]

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]

ثالثًا: قوله تعالى:﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥]

وتشترك تلك الآيات في قوله: (ووصينا الإنسان بوالديه).

السياق الثالث: سياق التكريم والتلطف

ثم جاء إكرام الوالدين بالدعاء إليهما وجاء ذلك في موضعين متفرقين:

أولهما: في سورة إبراهيم، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١] .

ثانيهما: في سورة نوح، قال تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ﴾ [نوح: ٢٨]

السياق الرابع: إكرام الوالدين بتفضيلهما عن غيرهما.

ونلاحظ مجيء إكرام الوالدين في سياقات أخرى، تقل عن سابقيها في مرتبة الإكرام، وذلك مثل سياق تفضيل الوالدين عن غيرهما، وذلك في موضعين في سورة البقرة:

أولهما: قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٠]

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٥]

فإذا ما تدبرنا تلك السياقات نجد أن أعلاها مرتبة في وجوب إكرام الوالدين السياق الأول، وهو أخذ العهد وتعديد التشريع؛ حيث جاء الأمر بالإحسان للوالدين على سبيل الوجوب والإلزام، وجاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين مباشرة بعد الأمر بعبادة الله تعالى وحده، كما أن قوله تعالى (وبالوالدين إحسانًا) فيه من اللطائف البلاغية ما يفيد وجوب إكرام الوالدين،

ففيه تقديم الجار والمجرور (آكد في البر والإحسان، وتقديم المجرور على العامل اعتناء بمتعلق الحرف وهما الوالدان واهتماما بأمرهما[1]).

١) البحر المحيط في التفسير ٤٥٦/١.

كما أن مجيء (الوالدين) بالتعريف يفيد الاستغراق، فيدخل فيه الآباء، والأمهات المؤمنون، والغير المؤمنون ، المحسنون، والمسيئون، وذلك بما (تثبت في أصول الفقه أن الحكم المرتب على الوصف مشعر بعلية الوصف، فدلت هذه الآية على أن الأمر بتعظيم الوالدين لمحض كونهما والدين وذلك يقتضي العموم[١]).

عبر سبحانه وتعالى عن إكرام الوالدين (بالإحسان)، والإحسان يفوق المعاملة بالمثل، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ [النحل: ٩٠]

فهو زائد عن المعاملة بالمثل، وجاء الإحسان بلفظ التنكير (ليدل على التعظيم أي إحسانًا عظيمًا كاملًا[٢]) وليشمل جميع أنواع الإحسان من قول أو فعل.

فنلاحظ كيف كان لهذا التعبير دلالة عالية على التعبير عن وجوب الإحسان للوالدين.

ثم يأتي سياق إكرام الوالدين بالتوصية بهما، فالتوصية تقل عن الأمر الصريح.[٣]

ثم يأتي بعد ذلك سياق الدعاء لهما وهو أضعف الإيمان، ثم سياق تفضيل الوالدين عن غيرهما. هذا وإن تفاوتت السياقات في درجة إكرام الوالدين، فنجد أن داخل السياق الواحد اختلفت الآيات الكريمة في درجة إكرام الوالدين تبعًا للأساليب، والألفاظ المستخدمة في كل موضع.

---

١) مفاتيح الغيب=التفسير الكبير ٣/٥٨٦.

٢) اللباب في علوم الكتاب ٢/٢٥١.

٣) الوصاية مصدر الوصي، والفعل: أوصيت، ووصيته توصية في المبالغة والكثرة (العين ٧/١٧٧).

السياق الأول: أخذ العهد وتعديد التشريع

وإن كانت الآيات الكريمة اتفقت في وجوب إكرام الوالدين بالإحسان إليهما في التعبير بقوله تعالى (وبالوالدين إحسانًا)، إلا أن لكل موضع خصوصية في التعبير عن إكرام الوالدين بالإحسان إليهما يتميز بها عن غيره من المواضع تبعًا للسياق، والألفاظ والمعاني المختصة به.

ففي الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ٨٣]

وردت تلك الآية في مقام (ذِكْرِ تَوْبِيخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَقْرِيعِهِمْ، وَتَبْيِينِ مَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنْ مِيثَاقِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَإِفْرَادِهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، مِنْ صِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَسَاكِينِ، وَالْمُوَاظِبَةِ عَلَى رُكْنَيِ الْإِسْلَامِ الْبَدَنِيِّ وَالْمَالِيِّ: ثُمَّ ذِكْرِ تَوَلِّيهِمْ عَنْ ذَلِكَ، وَنَقْضِهِمْ لِذَلِكَ الْمِيثَاقِ، عَلَى عَادَتِهِمُ السَّابِقَةِ وَطَرِيقَتِهِمُ الْمَأْلُوفَةِ لَهُمْ [١]).

فسياق أخذ الميثاق فيه ما فيه من الشدة، وإقامة الحجة على بني إسرائيل، وعبر الله تعالى عن ذلك العهد بالميثاق[٢]؛ لإقامة الحجة على بني إسرائيل.

وإكرام الوالدين في تلك الآية يعد أعلى مراتب إكرام الوالدين في سياق أخذ العهد وتعديد التشريع؛ إذ إن للسياق أثرًا واضحًا في ذلك،

---

١) البحر المحيط في التفسير ٤٥٦/١.

٢) (مِفْعَالٌ، مِنَ التَّوَثُّقِ بِالْيَمِينِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُؤَكِّدُ الْقَوْلَ (تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٨٨/٢).

وتبرز أهمية احترام الوالدين في هذا السياق بشكل فائق؛ إذ يظهر أن الله أمرهم بالإحسان إلى الوالدين ووضع ذلك في إطار العهد والتشريع.

ومما زاد ذلك السياق قوة استخدام ضمير (نا) في قوله تعالى:(أخذنا)، الذي يبين عظمة الله تعالى، واستخدام لفظ (ميثاق) بدلًا من عهد؛ (الميثاق: العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد، فإن لم يكن مؤكداً سمى عهدًا)[1] .

ومن الأساليب التي علت من ذلك السياق استخدام أسلوب القصر (لا تعبدون إلا الله)، الذي أفاد قصر العبادة لله وحده، فلا يعبد غيره، وهو إخبار في معنى النهي وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي؛ لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء، ومما زاد شأن ذلك الميثاق الإظهار موضع الإضمار[2]، في قوله (لا تعبدون إلا الله)، أظهر لفظ الجلالة(الله) فلم يقل (لا تعبدون إلا إياه)، وذلك أبلغ في الفخامة، وبيان في ارتفاع شأن ذلك الميثاق، ثم جاء الأمر بالإحسان للوالدين {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، وفي ذكر الأمر بالإحسان للوالدين في ميثاق بني إسرائيل دلالة على أهمية الإحسان إلى الوالدين، وأنه أمر مفروض على جميع البشر في جميع الديانات، وقدم الجار والمجرور (بالوالدين) لعلو منزلتهما.

ولكل تلك السمات في ذلك السياق كان أعلى المراتب في إكرام الوالدين.

يأتي بعد موضع سورة البقرة موضع سورة النساء قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ

١) صفوة التفاسيرص٦٥.

٢) انظر: البلاغة العربية، ٩٨/٢.

وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦] .

لما كان الحديث في موضع سورة البقرة يتحدث عن الميثاق الذي كان بين الله تعالى وبين بني إسرائيل، وبُين من خلاله الأحكام التي وضعها الله لبني إسرائيل في شريعتهم وذلك في صورة ميثاق، تلاه في المرتبة موضع سورة النساء؛ إذ سياقه الحديث عن وضع (أحكام أواصر القرابة في النسب والدين والخطاب موجه للمسلمين) [1].

بدأت تلك الآية الكريمة بحرف العطف؛ لربط تلك الأوامر بسابقيها من أوامر أمر الله بها عباده المسلمين لتنظيم الأسرة المسلمة.

وقال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) أمر الله تعالى بالعبادة أولًا، ثم نفي الشرك، إذ الخطاب هنا موجه للمؤمنين، فالمقصود دوام العبادة لله، وهي جملة تحمل معنى القصر مثل قوله في سورة البقرة (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)، وعدل عن القصر إذ (يُصَارُ إِلَيْهَا عِنْدَ مَا يَكُونُ الْغَرَضُ الْأَوَّلُ هُوَ طَرَفَ الْإِثْبَاتِ، ثُمَّ يَقْصِدُ بَعْدَ ذَلِكَ نَفِيَ الْحُكْمِ عَمَّا عَدَا الْمُثْبَتِ لَهُ، لِأَنَّهُ إِذَا جِيءَ بِالْقَصْرِ كَانَ الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ هُوَ نَفْيَ الْحُكْمِ عَمَّا عَدَا الْمَذْكُورِ وَذَلِكَ غَيْرُ مُقْتَضَى الْمَقَامِ هُنَا، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَمَّا خُوطِبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِنَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ خُوطِبُوا بِطَرِيقَةِ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣]؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ إِيقَاظُهُمْ إِلَى إِبْطَالِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى:

---

١) التحرير والتنوير ٤٨/٥.

«اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» وَلِأَنَّهُمْ عَبَدُوا الْعِجْلَ فِي مُدَّةِ مُنَاجَاةِ مُوسَى رَبَّهُ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِالنَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ)[1].

ونكر شيئًا للعموم، لنفي شرك أي شيء من صنم أو حيوان أو غير ذلك. فمما قوى موضع سورة النساء وقوعها في سياق وضع التشريع من الله تعالى لعباده المسلمين الموحدين.

ثم يليهما في المرتبة موضع سورة الأنعام قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١]

وردت الآية الكريمة في سياق قضية التشريع، ومزاولة حق الحاكمية في إصداره.

وهذا السياق وإن ورد في بيان الحلال والحرام، إلا إنه يقل عن سابقيه؛ فهو سياق جزئي، سياق محدود بقضية محددة؛ فأهل الجاهلية افتروا على الله كذب في تحريم بعض الأشياء وتحليل بعضها، فأراد الله أن يبين لهم الحلال، والحرام على وفق شريعة الله تعالى، وأن الله وحده هو المحرم، والمحلل.

ومما قلل مرتبة ذلك الموضع بنية الآية، إذ بدأت بقل تعالوا فالخطاب للنبي– صلى الله عليه وسلم –أمره الله أن يخبرهم بما حرم الله تعالى عليهم، أما الموضعان السابقان– سورة البقرة وسورة النساء– فالخطاب من الله لعباده مباشرة مما يزيد من رهبة الأمر وشدته.

---

١) التحرير والتنوير ٤٨/٥.

كذلك ذكر (ربكم، به) في قوله: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ، بينما في الموضعين السابقين ذكر اسم الله الأعظم(الله)، الذي يجمع بين صفتي الربوبية والالوهية.

نصت الآية الكريمة على الأمر بعدم الشرك دون الأمر بالعبودية، وإن كان الأمر بعدم الشرك يقتضي عبادة الله وحده، إلا أن في الموضعين السابقين ذكر على سبيل أسلوب القصر في موضع سورة البقرة (لا تعبدون إلا الله)، ونص عليه في سورة النساء ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ، فالأمر بعبادة الله وحده والنهي عن الشرك في سورتي البقرة والنساء، أعلى مرتبة لشموليهما، ووضوحهما في تأكيد التوحيد.

ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ والوصية (تكون بتحريم وبتحليل، وبوجوب وندب[1])، فالوصية أقل من العهد والأمر المباشر.

أما إذا ما جئنا لموضع سورة الإسراء قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٥]

إذا ما تدبرنا موضع سورة الإسراء نجدها أكثر المواضع تفصيلًا لوجوه الإحسان بالوالدين؛ حيث شمل الإحسان بالقول ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل

---

١) أطيب النشر في تفسير الوصايا العشر ٦٩-٧٠/٢٠.

لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾، ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾، والإحسان بالفعل ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ ، بل ذكر ما يجول في النفس وما إذا كان ما يفعله الابن لوالديه عن طيب خاطر، أم عن تأفف وضجر فقال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ .

فبتدبر الآيات نلاحظ أن موضع سورة الإسراء، أشد المواضع في التعبير عن إكرام الوالدين؛ حيث بدأت بقوله (وقضى) ولهذا اللفظ دلالات كثيرة كلها ترجع إلى (معنى

انقطاع الشيء وتمامه[١])، قال القتبي (وقضى ربك أي حتم ربك وهو من الفرض والالتزام أي فرض ربك وألزم[٢]).

وأمر الله تعالى وقضاؤه لا يجوز مخالفته، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]

وقد بينت حالة الكبر التي يحتاج فيها الوالدان إلى الرعاية، واللطف من أبنائهم بسبب الضعف والشيخوخة، نظرًا لما كانا عليه من رعايتهم في صغرهم. ولذا أكد الله واجب الإحسان في مثل هذه الحالة التي يكونان في أمس الحاجة إلى معونة أولادهما حالة تقدم السن الذي يصحبه الهزال، والضعف ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم: ٥٤]

١) تهذيب اللغة ٨/١٧٠.

٢) تفسير الماتريدي ٧/٢٦.

ويحتاجان من اللطف والصبر من أولادهم، فأوجب الله تعالى الإحسان إلى الوالدين عندما يبلغان أو يبلغ أحدهما الكبر، ذكر سبحانه أنهما يكونان عند أولادهم، وفي كنفهم، وتحت رعايتهم، ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾، وفي ذلك حث الأبناء على حسن التعامل مع والديهم، فبعد أن كان الأبناء في كنف والديهم، وتحت رعايتهم في الصغر أصبح الوالدان الآن في حاجة ماسة إلى أبنائهم، ولذلك خص سبحانه حالة الكبر.

كما أن في تلك الحالة يكون تقصير الأبناء بآبائهم أكثر؛ لانشغالهم بحياتهم وأولادهم، فكل جيل ينشغل بالجيل القادم، بينما ينسى الجيل السابق له الذي بذل أقصى جهده في رعايته وحمايته.

ونلاحظ كيف عنى سبحانه بذكر تعدد الفاعل في قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ، لئلا يتوهم أحد إذ بلغ الوالدان الكبر أن يقول الوالدان كل منهما يهتم بالآخر كما يفعل بعض الأبناء في عصرنا الحالي، بل لابد أن يكونا تحت رعاية أبنائهم وفي كنفهم وحمايتهم.

ثم بدأ سبحانه وتعالى في ذكر أوجه الإحسان إلى الوالدين فبدأ بأقل أنواع الإساءة﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ، أي لا تعنفهما في القول، وعبر بأقل لفظ يمكن أن يتقول به الابن لأبويه؛ ليدل على منع سائر أنواع الإيذاء فهو من باب (إطلاق الخاص على العام).

لم يقتصر نهي الله عز وجل عن الضجر من الوالدين فقط، بل نهى سبحانه عن أبلغ من ذلك حيث أمر الأبناء أن يصبروا على والديهم حتى ولو صدر عنهما شيء يكرهونه، كما صبر الوالدان عليهم صغارًا.

وقد جاء النهي عن نهر الوالدين والأمر بمخاطبتهما بقول كريم، وفي ذلك دلالة على عظيم حقهما ووجوب احترامهما وعدم إيذائهما بأي شكل من الأشكال.

وجاء التنكير في قوله(قولاً) ليشمل كل الأقوال الكريمة في جميع مواقف الحياة (كل شيء يشرف في بابه فإنه يوصف بالكرم[١])، ووصف القول بأنه كريم مبالغة في الإحسان بالقول إلى الوالدين، قال الراغب في مفرداته (الكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة[٢]). وبجانب القول الكريم، على الأبناء أن يتحلوا بالتواضع، والذلة في التعامل مع والديهم، وأن يكون ذلك رحمة بهما، وتذكر لفضلهما على أولادهم، قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

وفي إضافة الذل إلى الجناح لطائف بيانية تجسد تواضع الأبناء للوالدين، فهي استعارة مكنية (لأن إثبات الجناح للذل يخيل للسامع أن ثمة جناحًا يخفض، والمراد ألن لهما

جانبك، وتواضع لهما تواضعًا يلصقك بالتراب، والجامع بين هذه الاستعارة والحقيقة أن الجناح الحقيقي في أحد جانبي الطائر، وأن الطائر إذا خفض جناحه وهو الذي به يتقوى وينهض، انحط إلى الأرض وأسف الى الحضيض ولصق بالتراب فالاستعارة مكنية، إذ شبهت إلانة الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقة وهذه أجمل استعارة وأحسنها وكلام العرب جاء عليها[٣]).

١) المفردات في غريب القرآن،٧٠٧/١.

٢) المفردات في غريب القران ٧٠٧/١.

)٣ التحرير والتنوير ٧٥/١٥.

وحذر الله سبحانه وتعالى الأبناء من أن يكون ما في باطنهم يخالف ظاهرهم، وفي ذلك تنبيه بأن يكون الإحسان بالوالدين عن طيب خاطر، فهو طاعة لله تعالى، وواجب الآباء على أبنائهم لتربيتهم لهم في الصغر.

ولذلك جاء التذييل: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٥]، (تَذْيِيلٌ لِآيَةِ الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ بِالْوَالِدَيْنِ وَمَا فَصَلَ بِهِ، وَمَا يَقْتَضِيهِ الْأَمْرُ مِنَ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمَأْمُورِينَ بِهَذَا الْأَمْرِ قَبْلَ وُرُودِهِ بَيْنَ مُوَافِقٍ لِمُقْتَضَاهُ وَمُفْرِطٍ فِيهِ، وَمِنَ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ بَعْدَ وُرُودِهِ مِنْ مُحَافِظٍ عَلَى الِامْتِثَالِ، وَمُقَصِّرٍ عَنْ قَصْدٍ أَوْ عَنْ بَادِرَةِ غَفْلَةٍ وَغُيِّرَ أُسْلُوبُ الضَّمِيرِ فَعَادَ إِلَى ضَمِيرِ جَمْعِ الْمُخَاطَبِينَ لِأَنَّ هَذَا يَشْتَرِكُ فِيهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَضَمِيرُ الْجَمْعِ أَنْسَبُ بِهِ)[1].

فالأمر بالإحسان إلى الوالدين لم يأت بمثل ذلك التفصيل في أي موضع، إلا أن سياق الآيات جاء في وضع قواعد السلوك، والآداب والتكاليف الفردية، والجماعية وليس في موضع التحريم، والتحليل، أو الوعيد؛ فالأسلوب أسلوب تلطف وتيسير على المسلمين فقد ذكر الطاهر ابن عاشور: (أن هذه الآية هي أول تفصيل للشريعة للمسلمين وقع في مكة[2]).

كما إذا ما نظرنا إلى نهاية الآيات التي وردت في هذا المقام، نجدها لا تنتهي بوعيد، بل تنتهي معظمها بسبب تلك الأوامر، وأنها خير للمأمور يظهر في الدنيا قبل الآخرة، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

١) التحرير والتنوير ١٥/ ٧٥.

٢) التحرير والتنوير ١٥/٦٥.

كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩-٣٥]

كما نلاحظ في نهاية تلك الأوامر ختمها بقوله الله تعالى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٨] ، فلم يتوعد الله تعالى لمن يفعل غير ما أمر به بعذاب في الدنيا، أو في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٩] ، فوصف الله تعالى كل تلك الأوامر بالحكمة، فمما لا شك فيه أن الحكمة شيء عظيم يمن الله به على من يشاء، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ومن كل ذلك تبين لنا أن سياق تلك الآيات الكريمة كان سياق ترغيب وليس فيه ترهيب، بل هو تحبيب للنفس أن تفعل ما أمرها الله به، وهذا يتناسب مع وقت نزولها (أن هذه الآية هي أول تفصيل للشريعة للمسلمين وقع في مكة)[١].

ومن خلال ما سبق من تدبر للمواضع الأربعة، تبين لنا أن إكرام الوالدين يختلف في مرتبته حسب السياق الوارد فيه: من حيث أعلاها مرتبة وأقلها، وتدرج سياق العهد، ووضع الشرائع من حيث الأعلى مرتبة،

١) التحرير والتنوير ٦٥/١٥.

فبدأ بالأعلى مرتبة وهو عهد أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وذلك في سورة البقرة، ثم يليه في الرتبة موضع وضع الشرائع للمسلمين في موضع سورة النساء، ثم يليه موضع سورة الأنعام الوارد في مقام محدد – تبيين الحلال والحرام فيما افترى أهل الجاهلية– وأخيرًا موضع سورة الإسراء الوارد في مقام الترغيب، فهي أول تفصيل للشريعة للمسلمين في مكة.

السياق الثاني: الوصية والعناية

وصى الله تعالى بالوالدين، وجاء ذلك في سياقات ثلاث: أولها سورة العنكبوت، ثم سورة لقمان، ثم سورة الأحقاف (وفقًا لترتيب المصحف الشريف).

- قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨-٩].
- قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان: ١٤-١٥]
- قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٥]

وجاءت التوصية بالوالدين مرتبة ترتيبًا تنازليًا، من حيث العموم إلى الخصوص؛ نلاحظ أن الوصية في سورة العنكبوت جاءت مجملة، وهذا يتناسب مع بداية سورة العنكبوت التي تناولت (الحديث عن الإيمان، والفتنة وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان، إنما هو الصبر على المكاره

والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف، ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها [1].

وجاءت التوصية ضمن الحديث عن الفتن؛ إذ إن من أعظم الفتن التي قد يتعرض لها المسلم أن ينشأ بين والدين أحدهما كافر أو كلاهما، بل ليس كافرين فقط، بل يدعواه إلى الشرك بالله ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ ﴾ ، وعبر بالمجاهدة للمبالغة في جدالهما معه.

وحينما ننتقل لسورة لقمان نجد أن الوصية بالوالدين جاءت متداخلة مع وصية لقمان، وما يستوجب انتباهنا أن الوصية بالوالدين نسبت إلى الله تعالى(ووصينا) ولم تنسب إلى لقمان؛ وفي ذلك إشارة إلى عظم حق الوالدين وعلو مكانتهما.

كما نلاحظ أنها جاءت بعد نهي لقمان لابنه عن الشرك بالله؛ إذ إن هذا هو المعهود في القرآن الكريم، أن الوصية بالوالدين تتبع الأمر بعبادة الله تعالى وحده قال تعالى:﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ .

ولما جاءت وصية لقمان لابنه مفصلة، ناسب ذلك أن تأتي الوصية مفصلة، فبدأ الله تعالى بالتوصية بالوالدين، ثم ذكر سبب تلك الوصية، ﴿ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ ﴾ ، وذكر حق الأم وما لقيت من أمر الولد من الشدة: فقال حملته أمه وهنًا على وهن يعني ضعفًا على ضعف، وفطامه بعد سنتين من وقت ولادته، ووصيناه وأمرناه بأن اشكر لي بما هديتك للإسلام، واشكر لوالديك بما فعله إليك إلى المصير فأجازيك بعملك.

---

١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٨.

أما إذا ما جئنا لموضع سورة الأحقاف قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

مناسبة الآية لما قبلها:

(وتبدو هذه المناسبة فيما تضمنته الآيات السابقة من الإشارة إلى القرآن الكريم، وأنه يحمل النذير بالعذاب إلى الذين ظلموا، والبشرى بالجنة والرضوان للذين آمنوا وأحسنوا ثم ما جاء بعد ذلك من تعقيب بقوله(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا)، وما في هذا التعقيب من بيان لما أعد الله للذين آمنوا واستقاموا من جزاء كريم في الآخرة ،وأنهم أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون، ثم كان قوله تعالى: (ووصينا الإنسان) دعوة مرافقة للدعوة إلى الإيمان بالله، وإحسان العمل في سبيل مرضاته، وأن مع الإحسان إلى الوالدين، فلن يكون الإنسان من المحسنين إذا فاته الإحسان إلى أبويه [١]).

ووصى الله تعالى الإنسان بالوالدين في تلك المواضع الثلاث، ونلاحظ أن تلك الوصية وصفت مرة حُسنًا في سورة العنكبوت، وإحسانًا في سورة الأحقاف، ولم توصف في سورة لقمان، وإذا ما تدبرنا تلك المواضع الثلاثة:

نجد في سورة العنكبوت الوالدين مشركين، يدعوان ولدهما للشرك بالله، ولكن بدون شدة، أو أقل شدة من موضع سورة لقمان، بدليل قوله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى ﴾ فاللام هنا للتعليل، أي سبب المجاهدة أن يشرك الابن، بينما في سورة لقمان ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى ﴾ المجاهدة أشد؛ بدليل

١) التفسير القرآني للقرآن ٢٧٤/١٣.

قوله: (على أن تشرك) التي تفيد التعهد، والمداومة كما قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ ﴾ [القصص: ٢٧]

ولذلك لم يقل الله تعالى إحسانًا أو حُسنًا، بل ذكر ﴿ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾ ،هذا وإن كان المعروف أقل من الحُسن والإحسان، إلا أنه تعالى قال: ﴿ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾) (فلم يقل مثلا أعطهم معروفًا، إنما جعل المعروف مصاحبة تقتضي متابعتهما وتفقد شأنهما، بحيث يعرف الابن حاجة أبويه، ويعطيهما قبل أن يسألا، فلا يلجئهما إلى ذل السؤال، وهذا في ذاته إحسان آخر[١])، وذلك بسبب توهم البعض أن كفر الوالدين أو أحدهما قد يكون سببًا في عقوق الوالدين، أو عدم إعطائهم حقوقهم، لذلك جاءت الوصية بالوالدين، والشكر لهما، ومصاحبتهما في الدنيا معروف.

بينما في سورة الأحقاف جاء أعلى مراتب الوصية بالوالدين بوصفها إحسانًا، فالإحسان أعلى مراتب الكرم فهو (أن تفعل فوق ما كلفك الله مستشعرًا أنه يراك [٢]).

وذلك لأن الأبوين مسلمان بدليل قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ [الأحقاف: ١٥]، (والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها: نعمة التوحيد والإسلام، وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه، لأن النعمة عليهما نعمة عليه[٣]).

ومما يلاحظ أن في سورة العنكبوت لكونها كما ذكرنا سابقًا جاءت الوصية مجملة، لم يخص الأم بالذكر كما في سورتي لقمان والأحقاف.

---

١) تفسير الشعراوي ١٩/ ١١٦٥٠.

٢) تفسير الشعراوي ٤/٢٢١١.

٣) تفسير الزمخشري ٤/٣٠٢.

ففي سورة لقمان اختص الله تعالى الأم بالذكر بعد التوصية بالوالدين من باب ذكر الخاص بعد العام على سبيل الإطناب، وذلك للاهتمام بالأم، وعلو مكانتها لما تجده الأم من تعب، وضعف من بداية حملها، ولا ينتهي تعبها بالولادة، بل يستمر طيلة حياتها.

ونلاحظ أن الله سبحانه وتعالى وصف تعب الأم في سورة لقمان بقوله: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان: ١٤]، وفي سورة الأحقاف: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ ﴾ [الأحقاف: ١٥]

الخطاب في سورة لقمان، وسبب النزول كان في أم مشركة، جاهدت ولدها على الشرك بالله تعالى بينما في سورة الأحقاف الأم مؤمنة، من الواضح أن الحمل يشكل ضعفًا، ومشقة على كل أم، سواء كانت مؤمنَة أو مشركَة، ومع ذلك، فإن حال الأم المشركة يستلزم تصويرها في حالة وهن وضعف أكبر، لتعزيز قيمة الإحسان تجاهها.

وفي قوله: ﴿ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان: ١٤] حرف الجر على الذي يفيد الاستعلاء، يصور ضعف الأم، فالمرأة بطبيعتها ضعيفة الخِلقة، والحمل يزيدها ضعفًا، فكأن ضعيفًا يحمل ضعيفًا، وفي هذا التعبير أيضا ما يؤكد حق الأم في الإحسان إليها.

كما أمر الله تعالى في سورة لقمان الابن أن يشكر الله، ويشكر للوالدين المشركين، حتى لا يظن أحد أن شرك الوالدين سبب في عدم الشكر لهما، بينما في الأحقاف الابن هو الذي يدعو الله أن يعينه على شكره على ما أنعم عليه وعلى والديه.

وختم سبحانه الوصية في سورة العنكبوت بقوله: ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨] ، للتنبيه على أن ما يفعله الابن في سبيل إحسانه لوالديه من قول أو فعل سيجزيه الله تعالى عليه، وما تحمله من صبر في سبيل ذلك، وإذا ما تدبرنا الآية التالية نرى فيها من رحمة الله تعالى بنا وإحسانه علينا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٩]، فإن الله تعالى يؤكد لنا بأنه سيجزينا عن أعمالنا الصالحة (لندخلنهم) الفعل مؤكد باللام والنون، أي مدخل الصالحين وهو الجنة، وفي ذلك حث على بر الوالدين، فهو من أحب الأعمال إلى الله، (قال عبد الله سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال صلى الله عليه وسلم الصلاة على وقتها قلت: ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال ثم الجهاد في سبيل الله[١]).

وفي سورة لقمان ختمت ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥]، فمجيء حرف العطف (ثم) الذي يفيد التراخي يخدم التفصيل في الوصية.

مما سبق نستنتج أن الوصية بالوالدين جاءت متدرجة في كتاب الله العزيز، حسب ترتيب المصحف الشريف؛ إذ كانت الوصية الأولى في سورة العنكبوت مجملة عامة للناس، والثانية في سورة لقمان فيمن منعه أحد والديه عن الإيمان، والثالثة فيمن آمن وآمن آبواه.

---

١) صحيح مسلم ١/٩٠.

السياق الثالث: التكريم والتلطف

إنَّ الدين الإسلامي قد ألزم الإنسان البر بوالديه، وتكريمهما، باعتبارهما سبب وجوده ومن ربَّاه وأنفق عليه.

ومن طرق التلطف بهما، وإكرامهما الدعاء لهما بالمغفرة، والرحمة. وقد حثت النصوص الشرعية الكثيرة على بر الوالدين، والدعاء لهما، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: ٢٤])، قال رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ[١]).

فالدعاء للوالدين يعتبر سببًا رئيسيًا في تكريمهما، والتلطف بهما، يعبر عن مشاعر الابن الحميمة، والتقدير لمن أنفقا عليه من صغره، كما يتولد عنه شعور الوالدين بالرضا، والسعادة عندما يسمعا ابنهما يدعو لهما بالخير، والبركة، فتدوم المحبة والاحترام بين الوالدين وابنهما.

كما أن للدعاء للوالدين فضلًا في الآخرة، بمحو الذنوب، ورفع الدرجات، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ[٢])، (عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها فإن الولد من كسبه[٣]).

جاء إكرام الوالدين بالدعاء إليهما في موضعين متفرقين:

---

١) صحيح مسلم ١٢٥٥/٣.

٢) المرجع السابق ١٢٥٥/٣.

٣) صحيح مسلم ١٢٥٥/٣.

أولهما: في سورة إبراهيم قال تعالى:﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ثانيهما: في سورة نوح قال تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ٢٨].

فإذا ما جئنا إلى الموضع الأول الوارد في سورة إبراهيم، بتدبر سورة إبراهيم نجدها تصور حال فريقين: فريق آمن بالله وهم الرسل –عليهم السلام – ومن آمن معهم.

وفريق كفر بالله ورسله ويمثله كل من كفر بالله من قوم نوح، وعاد، وثمود، والجاهليون في عصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – .[1]

وجاءت الآية الكريمة في مقام دعاء سيدنا إبراهيم لربه، قال تعالى:

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤٢]

١) راجع: في ظلال القرآن ٤/٢٠٧٩.

(إن السياق يصور إبراهيم- عليه السلام- إلى جوار بيت الله الذي بناه في البلد الذي آل إلى قريش، فإذا بها تكفر فيه بالله، مرتكنة إلى البيت الذي بناه بانيه لعبادة الله! فيصوره في هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف، ويرد الكافرين إلى الشكر، ويرد الغافلين إلى الذكر، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون[١]).

وأما إذا ما تدبرنا موضع سورة نوح، نجدها تقص علينا قصة سيدنا نوح- عليه السلام- مع قومه، وتصور لنا كم لاقى سيدنا نوح من قومه من عناد، وكفر، وإصرار على عبادة الأصنام، وكم صبر نبي الله نوح -عليه السلام – في سبيل دعوة قومه إلى الإيمان بالله وحده، فقد لبث في دعوته ألف سنة إلا خمسين عامًا، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وبالتدبر في السياقين نجد أن موضع سورة إبراهيم أعلى رتبة من موضع سورة نوح؛ إذ إن سياق الدعاء يتطلب الخشوع والخضوع من الداعي، حيث يتضرع لربه بقلب منكسر ولسان خاشع، فيدرك عجزه وفقره أمام عظمة الله وكماله، فيدعو بخيري الدنيا والآخرة، معترفًا بفضل الله عليه، مستشعرًا عظمة نعمة الله به، ومع تلك الحالة المليئة بالخوف من الله قلبه مطمئن بإجابة الله له، إذ يثق برحمة الله، وكرمه، فيقبل دعاءه، ويستجيب له

﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، فيلح في دعائه لربه، ولا يمل من الاستعانة بربه، والتضرع إليه. ويتجلى ذلك واضحًا في موضع سورة إبراهيم؛ إذ كان دعاء سيدنا إبراهيم منبثقًا من قلب معترف بنعم الله عليه، وعلى ذريته،

١) في ظلال القرآن ٤/٢١٠٩.

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، حمد سيدنا إبراهيم ربه على ما رزقه من ولد، بعد كبر سنه، ومع ذلك كان يدعو ربه متيقنًا بأن ربه يسمعه ويعلم ما يسر، ويعلن، ولذلك صدر دعائه بحمد الله، مستشعرًا فضل الله عليه.

وفي تعريف "الحمد " للاستغراق[1]، فجميع أنواع الحمد واجبة لله تعالى، ولذلك عبر بالجملة الاسمية؛ لإفادة الثبوت والدوام، فالحمد ثابت، واجب لله في كل وقت وحين.

وقوله " على الكبر" (لِلِاسْتِعْلَاءِ الْمَجَازِيِّ بِمَعْنَى مَعَ، أَيْ وَهَبَ ذَلِكَ تَعَلِّيًا عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ لَا تَسْمَحَ بِذَلِكَ[2]).

وفي تكرار النداء لله تعالى وتنوع ذلك النداء بين (رب –ربنا)، تصوير لتضرع سيدنا إبراهيم لله تعالى، رغبة في الاستجابة، وحذف أداة النداء يوحي باستشعار الداعي لقرب الله تعالى منه، وأنه سميع له مجيب دعاءه.

ونلاحظ تنوعًا بين استخدام صيغة المفرد "رب"، والجمع "ربنا" في دعاء سيدنا إبراهيم (لِأَنَّ الدُّعَاءَ الَّذِي افْتُتِحَ بِهِ فِيهِ حَظٌّ لِلدَّاعِي وَلِأَبْنَائِهِ[3]).

" إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ" في اشتمال تلك الجملة على تلك التأكيدات: إنّ، اللام، اسمية الجملة دلالة على يقين الخليل بإجابة الله تعالى له، وعلى حسن ظن إبراهيم –عليه السلام –بربه، كما في استعمال السميع (بِمِثَالِ الْمُبَالَغَةِ أَوِ الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ لِيَدُلَّ عَلَى كَثْرَةِ ذَلِكَ وَأَنَّ ذَلِكَ شَأْنُهُ، فَيُفِيدُ أَنَّهُ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لله تَعَالَى)[4].

---

١)الإيضاح في علوم البلاغة ٢/٢٥.

٢) التحرير والتنوير ١٣/٢٤٣.

٣) التحرير والتنوير ١٣/٢٤٠.

٤) التحرير والتنوير ١٣/٢٤٣.

ختم إبراهيم –عليه السلام– دعاءه بطلب المغفرة من الله تعالى؛ إظهارًا للالتجاء إلى الله تعالى واعترافًا منه أن الإنسان وإن كان رسولًا فهو مفتقر لغفران الله وعفوه.

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، بدأ إبراهيم دعائه بطلب الغفران لنفسه، فالأقرب الوالدين، فالأقرب المؤمنين، وذكره (يوم يقوم الحساب) استشعارًا لعظمة ذلك اليوم، ولتهويله في نفوس العباد، حتى يستعدوا له، وفيه استعارة حيث (اسْتُعِيرَ الْقِيَامُ لِلثُّبُوتِ تَبَعًا لِتَشْبِيهِ الْحِسَابِ بِإِنْسَانٍ قَائِمٍ، لِأَنَّ حَالَةَ الْقِيَامِ أَقْوَى أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ إِذْ هُوَ انْتِصَابٌ لِلْعَمَلِ[1]).

هذا وإن كان دعاء سيدنا نوح – عليه السلام– أعلى إكرام للوالدين قال تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ٢٨]

حيث فيه تكرار الدعاء للوالدين، إذ دعا لهما أولاً صراحة في قوله: "اغفر لي ولوالديَّ"، ثم ضمهما ضمنياً ضمن الدعاء العام في قوله: "من دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين

والمؤمنات". وهذا الأسلوب البلاغي يشير إلى تأكيد الخصوصية ثم العمومية، مما يعزز من أهمية الدعاء للوالدين.

إلا أن سياق موضع سورة نوح كان سياق شكوى لله تعالى من قومه، بسبب طغيانهم، وكفرهم، فهو دعاء للمؤمنين ودعاء على الظالمين ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ

١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٤٥.

إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ٢١-٢٨]

وبذلك يتضح لنا دور السياق في تحديد مرتبة إكرام الوالدين بالدعاء لهما، ويتضح لنا علو مرتبة سياق موضع سورة إبراهيم، حيث يتسم السياق بعلو الروحانية والتذلل أمام الله تعالى، مما يؤثر في القلوب فيزيدها خشوعاً وخضوعًا فعند سماع قوله تعالى: " رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"، تهفو النفوس، وتفيض العيون بالعبرات إجلالاً لله تعالى، ويقيناً في استجابته لهذا الدعاء الصادق، مما يعكس تأثير السياق القرآني في تعزيز هذه المشاعر الإيمانية. ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

السياق الرابع: إكرام الوالدين بتفضيلهما عن غيرهما

يُعتبر الوالدان رمزًا للتضحية والعطاء غير المشروط، لذلك قدمهما الله تعالى عن سواهما، وفضلهما عمن سواهما، فكان الأمر بالتوصية بهما، والإحسان إليهما عقب الأمر بعبادته سبحانه، مما يدل على رفعة منزلتهما، وعلو قدرهما.

ومن صور إكرام الوالدين بتفضيلهما عن غيرهما: حقهما في مال أولادهم، والإنفاق عليهما، فقد قدمهما سبحانه عن غيرهم، وورد ذلك في موضعين في القرآن الكريم، وردا في سورة البقرة:

أولهما: قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ ﴾ [البقرة: ١٨٠]

وثانيهما: قوله تعالى : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥ ﴾ [البقرة: ٢١٥][1] .

وللوقوف على مرتبة إكرام الوالدين في الإنفاق، علينا تحليل كل منهما من حيث السياق والمحتوى.

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ ﴾ [البقرة: ١٨٠]

١) سورة البقرة آية ٢١٥.

جاءت الآية بعد الأمر بالقصاص، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ ﴾ [البقرة: ١٧٨-١٨٠]

(لَمَّا ذُكِرَ أَنَّ لِوَلِيِّ الدَّمِ أَنْ يَقْتَصَّ، فَهَذَا الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى مَنْ يَقْتَصُّ مِنْهُ وَهُوَ سَبَبُ الْمَوْتِ فَكَأَنَّمَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَهَذَا أَوَانُ الْوَصِيَّةِ، فَالْآيَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِمَا قَبْلَهَا وَمُتَّصِلَةٌ بِهَا فَلِذَلِكَ سَقَطَتْ واو العطف.)[1]

تتناول هذه الآية موضوع الوصية في حالة الموت، (وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا – عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ –قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الْمَوَارِيثِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْفَرَائِضِ نَسَخَتْ هَذِهِ، وَصَارَتِ الْمَوَارِيثُ الْمُقَدَّرَةُ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ، يَأْخُذُهَا أَهْلُوهَا حَتْمًا مِنْ غَيْرِ وَصِيَّةٍ وَلَا تَحْمِلُ منَّة الْمُوصِي[2])، مما يُعبر عن أهمية إكرام الوالدين حتى في اللحظات الأخيرة من الحياة.

وبدأت الآية بالفعل "كُتِبَ" للدلالة على الإلزام والفرضية، كما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [3])، وجعل الله تنفيذ تلك الوصية واجبًا على المتقين، وفي ذلك تشريفًا وتكريمًا لتلك الوصية، (وَخَصَّ هَذَا الْحَقَّ بِالْمُتَّقِينَ ترغيبًا فِي الرضى بِهِ لِأَنَّ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْمُتَّقِي فَهُوَ أَمْرٌ نَفِيسٌ فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْوُجُوبَ عَلَى الْمُتَّقِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ

---

١) تفسير القرطبي ٢٥٨/٢.

٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ٤٩٢/١.

٣) سورة البقرة آية: ١٨٣.

الْعُصَاةِ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ هُوَ مِنَ التَّقْوَى وَأَنَّ غَيْرَهُ مَعْصِيَةٌ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: خَصَّ الْمُتَّقِين بِالذِّكْرِ تَشْرِيفًا لِلرُّتْبَةِ لِيَتَبَارَى النَّاسُ إِلَيْهَا)[1]

وبدأت الوصية بالوالدين لعظم حقهما، ولأنهما أولى الناس بمال أولادهم.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٥]

وردت تلك الآية الكريمة بعد قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، بعد أن ذكر فيما سلف أن حب الناس لزينة الحياة الدنيا هو الذي أغراهم بالشقاق والخلاف، وأن أهل الحق هم الذين يتحملون البأساء والضرّاء في أموالهم وأنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ناسب أن يذكر هنا ما يرغب الإنسان في الإنفاق في ذلك السبيل، ومن المعلوم أن بذل المال كبذل النفس، كلاهما من آيات الإيمان، فالسامع لما تقدم تتوجه نفسه إلى البذل فيسأل عن طريقه، ومن ثم جاء بعده السؤال مقرونًا بالجواب: روي في أسباب النزول عن ابن عباس، أن ابن الجموح- وكان شيخًا كبيرًا وله مال عظيم- سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله، بماذا نتصدق وعلى من ننفق؟ فنزلت الآية [2]).

١) التحرير والتنوير ١٤٨/٢.

٢) تفسير المراغي ١٣٠/٢.

فالسياق عن إنفاق التطوع، وجاء الرد على السائل بما يعرف في البلاغة العربية بالأسلوب الحكيم[1] حيث سألوا عن ماذا ينفقون، فجاء الجواب ببيان المصرف، للتنبيه على أن الأحرى لهم السؤال عمن يستحقون الإنفاق عليهم.

يمكن القول إن الآية الأولى تعطي مرتبة أعلى لإكرام الوالدين في سياق الوصية، حيث تُشير إلى أهمية ذلك حتى في وقت الموت، وتعتبره حقًا واجبًا على كل متقٍ. بينما الآية الثانية تعكس أهمية الإنفاق عليهم كجزء من العطاء العام، لكنها تضعهم في سياق أوسع يضم فئات أخرى.

بالتالي، يمكن اعتبار الآية الأولى تعكس أهمية إكرام الوالدين بشكل أكثر حدة، بينما تُظهر الآية الثانية بعدًا اجتماعيًا يُعزز من قيمة الإنفاق. لذا، من حيث مرتبة إكرام الوالدين، يُمكن القول إن الوصية في الآية الأولى تحتل مرتبة أعلى، لأنها تُبرز الخصوصية والالتزام الشخصي تجاههما في لحظة حساسة من الحياة.

١) وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب٤ بحمل كلامه على خلاف مراده٥ تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السائل غير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له "الإيضاح في علوم البلاغة ٢/٩٤"

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسوله الكريم

أما بعد:

هذا البحث قد حاول كشف دور السياق في فهم المعنى، واستخراج المراد، وبيان كيف كان للسياق دور مهم في إظهار دقائق المعاني في الآيات القرآنية التي اتفقت في المعنى العام. وقد توصل البحث إلى:

- إكرام الوالدين واجب على كل إنسان في كل تشريع، وفي كل عصر.
- للسياق دور مهم في تحديد المعنى، وإبراز براعته، وبلاغته.
- لفهم الآيات القرآنية فهمًا صحيحًا لابد من الوقوف على سياقها الواردة فيه (إذا حدثت عن الله قف حتى تنظر ما قبله، وما بعده).
- تفاوت السياقات في درجة إكرام الوالدين بصورة عامة.
- الآيات القرآنية الكريمة داخل السياق الواحد تختلف في درجة إكرام الوالدين تبعًا للأساليب والألفاظ المستخدمة في كل موضع.
- أعلى السياقات مرتبة في وجوب إكرام الوالدين سياق أخذ العهد وتعديد التشريع.

التوصيات:

في ضوء النتائج التي توصل إليها البحث يمكن تقديم بعض التوصيات:

- دراسة متشابهات القرآن الكريم، وتوظيف السياق في الكشف عن الفروق التي يتميز بها كل موضع عن غيره.

وفي الختام، أسأل الله أن يعفو عني فيما أخطأت، فما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، وما كان من صواب فمن توفيق الله تعالى لي.

(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ).

المصادر والمراجع

*القرآن الكريم.

*السنة النبوية المطهرة.

- أطيب النشر في تفسير الوصايا العشر، المؤلف: مرزوق بن هياس الزهراني، الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة، عدد الأجزاء: ٣.
- البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.
- البلاغة العربية، المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، عدد الأجزاء: ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين).
- تفسير الشعراوي – الخواطر، المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، عدد الأجزاء: ٢٠.
- تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة،

الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٨.

- التفسير القرآني للقرآن، المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.
- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، عدد الأجزاء: ١٠.
- تفسير المراغي، المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م، عدد الأجزاء: ٣٠.
- تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٨.
- جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمدشاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٢٤.
- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءا (في ١٠ مجلدات).

- دلائل الإعجاز في علم المعاني، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٦.
- صفوة التفاسير، المؤلف: محمد علي الصابوني، لناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ١.
- في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ.
- كتاب العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: ٨.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ، عدد الأجزاء: ٤.
- اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٢٠.

- لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ، عدد الأجزاء: ١٥.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، عدد الأجزاء: ٥.
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.
- المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى– ١٤١٢ هـ.

فهرست الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

رقم الآية	نصها	اسم السورة	الصفحة
٨٣	﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾	البقرة	١٧٨٣
١٨٠	﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾	البقرة	١٧٨٥
٢١٥	﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾	البقرة	١٧٨٥
٣٦	﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾	النساء	١٧٨٣

١٥١	﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾	الأنعام	١٧٨٣
٩٠	﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾	النحل	١٧٨٦
٢٣	﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾	الإسراء	١٧٨٣
٢٧	﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾	القصص	١٨٠١
٨	﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾	العنكبوت	١٨٠٣

٥٤	﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾	الروم	١٧٩٢
١٤	﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾	لقمان	١٧٨٤
٣٦	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾	الأحزاب	١٧٩٢
١٥	﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾	الأحقاف	١٧٨٤
٤١	﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾	إبراهيم	١٨٠٥
٢٨	﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾	نوح	١٨٠٥

فهرست الأحاديث النبوية

طرف الحديث	رقم الصفحة
قال رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ... "	١٨٠٤
"قال عبد الله سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال صلى الله عليه وسلم الصلاة على وقتها....."	١٨٠٤

فهرست الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٧٧٧
٢-	Abstract	١٧٧٨
٣-	مقدمة	١٧٧٩
٤-	تمهيد	١٧٨١
٥-	الفصل	١٧٨٣
٦-	السياق الأول: أخذ العهد وتعديد التشريع	١٧٨٧
٧-	السياق الثاني: الوصية والعناية	١٧٨٩
٨-	سياق الثالث: التكريم والتلطف	١٨٠٤
٩-	السياق الرابع: إكرام الوالدين بتفضيلهما عن غيرهما	١٨١٠
١٠-	الخاتمة	١٨١٤
١١-	فهرست المصادر والمراجع	١٨١٥
١٢-	فهرست الموضوعات	١٨٢٣